

المدارس النحوية العربية ومرتكزاتها في التأصيل النحوي

الدكتور: جمال سنوسي

d.senouci@univ-chlef.dz

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:

المتعارف عليه أن علم النّحو ظهر في وقت متأخر من ظهور اللّغة، بعد أن وصلت لمرحلة الكمال والنّضج في أساليبها وتراكيبها، واتّفاقهم على النموذج الموحد الذي ينبغي الاحتذاء به، والسّير على منهجه في الإفصاح والإبلاغ، وظهور بوادرنزياح عن ذلك التّموذج المتكامل حدّا باللّغويين إلى استنباط القوانين اللّغوية التي ينبغي الامتثال لها في الكلام، لأن لا يخفضوا المرفوع ويرفعوا المنصوب ويثنون ويجمعون على غير قاعدة، وعلى غير منطق فكانت المدارس النحوية الضابط الشرعي في التأصيل للدرس النحوي فأصلوا لهذا العلم، لأن لا يخرج الكلام عن موضعه في أداء الدلالة والمعنى .

الكلمات المفتاحية: علم النحو، المدارس النحوية، تجديد النحو، الكوفة، البصرة، الأندلس.

1- المدارس النحوية وإشكالية الاسم:

إن كلمة مدرسة تعبّر لنا من الوهلة الأولى عن ذلك الرّابط المعنوي والفكري الذي يجمع جماعة من النّاس تحت قبة واحدة، يتدارسون فيها موضوعاً من مواضيع العلم في شتى المشارب والتّخصصات، ولعلّ ظهور علم النّحو وتطوره دفع بالغيورين على اللّغة العربيّة والقرآن الكريم إلى إيجاد جامع يجمع العلماء والمريدين من تلاميذهم تحت لواء واحد، فنشأت بذلك ما يعرف بالمدارس النّحوية، فهي تعني: "وجود جماعة من النّحاة يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النّحو، ولا بدّ أن يكون هناك الرّائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتّابعون أو المريّدون الذين يقتفون خطاه ويتبنّون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه"

1

وإذا جئنا إلى المدارس النّحوية العربيّة التي ذاع صيتها وانتشرت بين العامة والخاصة فإنّنا نجد مدرستين عريقتين تنتميان إلى رقعة جغرافية نسبت إليهما وسميت باسمها، وهما: البصرة والكوفة، فقد كان "المعيار الجغرافي الأساس الوحيد لهذا التّقسيم، وهذا يوضح لماذا حملت كل مدرسة اسم منطقة"²، واتفق معظم الدّارسين في تقسيم المدارس النّحوية على أساس جغرافي، إلّا القلّة القليلة منهم كأحمد مختار عمر حيث يقول: "فنحن لا نوافق على اتخاذ المعيار الجغرافي أساساً لتقسيم العلوم إلى مدارس فكرية مختلفة، لأنّ وجود جماعة من الدّارسين لا يكفي مطلقاً لتشكيل مدرسة"³.

ويقول سعيد الأفغاني الذي يرفض المعيار الجغرافي أساساً في تصنيف المدارس النحوية: "درج العلماء على أنّ هناك مذهباً بصرياً وآخر كوفيّاً. فما معالم كل من المذهبين؟ هذه الميزات والمعاليم ليست جامعة مانعة، فليس هناك قاعدة أجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة الكوفة، أو قال بها آخرون وعارضها الأولون جميعاً"⁴.

ورغم هذا فإن اسم "مدرسة" هو الشائع المتداول عند الدارسين، ولا يكادون يختلفون فيه بينما اختلافهم هو في عدد المدارس النحوية، ونجمل هنا ما أورده شوقي ضيف حيث صنفها خمس مدارس هي على الترتيب: البصرية، والكوفية، والبغدادية والأندلسية، والمصرية ولم يذكر فيما ذكر المغربية وسنعرض فيما يلي شيئا من التخصيص لمميزات هذه المدارس، وأهم اتجاهاتها النحوية، ومركزاتها في تفسير القواعد والتأصيل للدرس النحوي العربي، مع تركيزنا على مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة؛ لما لهاتين المدرستين من باع طويل في تقعيد قواعد اللغة العربية وضبط ميزانها.

2- المدارس النحوية:

1-2- البصرة: وهي مدينة عراقية تقع إلى الجنوب الشرقي من بغداد، نشطت قديما في التجارة وعرفت رقا حضاريا وعلميا زمن العباسيين، "والحديث عن مدرسة البصرة هو الحديث عن النحو العربي منذ نشأته حتى عصرنا الحاضر، فالذي لا شك فيه أن النحو بصورته المعروفة نشأ بصرياً، وتطور بصرياً"⁵، فسبقت البصرة إلى دراسة النحو العربي ورسمت حدوده، وتفرغ لهذا عالم جليل هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، "وقد قصد حلقة طالبو العلم من أمصار مختلفة، وفدوا عليه يقتبسون من علمه... وكان من الوافدين على البصرة علي بن حمزة الكسائي المقرئ الكوفي، وقد وجد عند الخليل علماً غزيراً، وعرف أن مصدر ذلك بوادي نجد والحجاز فمضى يتصل بالأعراب، ويأخذ عنهم حتى أنفذ قدراً كبيراً من الخبر، وملاً صحائفه من أقوال الأعراب باختلاف لهجاتهم"⁶ وكان من أتباع الخليل تلميذه سيبويه الذي "قُدر له أن يصنف كتاباً عظيماً في علم العربية، بناه على أقوال الخليل وأرائه وتأويلاته، وزاد عليه أقوالاً لعدد من علماء العربية الذين صحبهم وأخذ عنهم، وقد أضحى كتاب سيبويه مرجع الدارسين، فلم يكن أحدهم ليكون نحويًا يعتد بعلمه حتى يُقرأه على شيخ من شيوخ العصر"⁷، فكان لعلماء البصرة سبق في دراسة ووضع قواعد العربية وهذا ما أشار إليه ابن سلام الجمحي حيث يقول: "وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية"⁸.

ولعل التاريخ للدرس النحوي، ومحاولة ربطه بالدرس السرياني واليوناني والهندي ليس لديه ما يثبت من الناحية العلمية، "خاصة أن النحو العربي يدور على نظرية العامل، وهي لا توجد في أي نحو أجنبي، وكل ما يمكن أن يقال: إنه ربما عرف نحاة البصرة الأولون أن لبعض اللغات الأجنبية نحوًا فحاولوا أن يضعوا نحوًا للعربية راجعين في ذلك إلى ملكاتهم العقلية التي كانت قد رقيت رقيًا بعيدًا بتأثير ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من المنطق مما دعم عقولهم دعمًا قويًا، وجعلها مستعدة لأن تستنبط قواعد النحو وعلمه وأقيسته"⁹.

ومن علماء هذه المدرسة نذكر: أبو إسحاق الحضرمي، والذي اعتبره شوقي ضيف أول النحاة البصريين وأستاذ المدرسة البصرية، وقال فيه ابن سراج: أنه كان أول من بعج (فتق) النحو ومدد القياس وشرح العلل، ومن تلامذته عيسى بن عمر، الذي مضى على نهجه في القياس، "وهو الذي مكّن للنحو وقواعده التي اعتمدها تلميذه الخليل ومن تلاه من البصريين سواء في محاضراته وإملاءاته أو في مصنفاته... تاركًا للخليل جهوده النحوية كي يتم صرح النحو ويكمل تشيده"¹⁰.

ومن تلاميذ أبي إسحاق الحضرمي أبو عمرو بن العلاء، وقد "عني بإقراء النَّاس القرآن في المسجد الجامع بالبصرة، وهو أحد قرائه السبعة المشهورين، كما عني بلغات العرب وغريبها وأشعارها وأيامها ووقائعها"¹¹.

ومن شيوخ مدرسة البصرة نذكر أيضا نصر بن عاصم (ت89هـ)، وعنبسة الفيل (ت100هـ) ويوسف بن حبيب (ت182هـ)، وسيبويه (ت188هـ)، والأخفش الأوسط (ت208هـ)، والأصمعي (ت216هـ) والمبرد (ت285هـ)¹² وغيرهم كثير ممن حفوا بالنحو ونما في مجالسهم وتأصل على يدهم حتى غدت البصرة مدرسة قائمة بذاتها، تقوم على أسس ومنهج خاص بها نجمه في الآتي:

- التزام البصريين بالرواية الموثقة إلى درجة التشدد في فصاحة الرواة .
- الاعتماد على القياس في استنباط الأحكام النحوية، فكانوا يقسون على الشائع من كلام العرب، "أما من حيث الاطراد في القواعد فقد تشددوا فيه تشدداً جعلهم يطرحون الشاذ ولا يعولون عليه في قليل أو كثير، وكلما اصطدموا به خطأوه أو أولوه"¹³.

- الاعتماد على القرآن الكريم وقراءاته، وإن وقف بعضهم بحذر شديد منها .
- عدم الاعتماد على الحديث الشريف، "فكانوا لا يحتجون بالحديث النبوي ولا يتخذونه إماماً لشواهدهم وأمثلةهم؛ لأنه روي بالمعنى"¹⁴.

- التوسع في القياس والتعليل؛ فقد توسعوا فيهما إذ طلبوا لكل قاعدة علة، وغالوا في ذلك إلى التأويلات البعيدة .

- التأثر بالعقل والمنطق، ففسروا الظواهر النحوية بمقتضى العقل ونزعوا النزعة العقلية الفلسفية .
- نقلوا عن قبائل بعينها، ولم يأخذوا عن سواها، كقريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين .

- عدم الاستشهاد بأشعار المولدين؛ باعتبار شعرهم يحمل الدخيل واللحن .
- اعتمادهم منهج السماع من أفواه الأعراب ومشافهتهم في بيئاتهم، لذلك يمكن أن نقول أن النحو العربي بدأ وصفاً بالنزول إلى مواطن اللغة، وارتبط النحو بالواقع اللغوي الذي هو من أهم ركائز المنهج الوصفي .

2-2- الكوفة : مدينة على نهر الفرات بالعراق، ولا تكاد تذكر البصرة إلا وتذكر في مقابلها الكوفة، "فقد كان فضل تأسيس النحو وتطويره بل لعلّ ازدهاره في مراحله الأولى يرجع إلى ما كان بين المدرستين من تنافس شديد ارتفع إلى درجة الخلاف حول كثير من ظواهر العربية"¹⁵، ولم تلبث الكوفة أن دخلت ميدان النحو، "على أن هناك حقيقة معروفة هي أن الكوفة تعلمت النحو من البصرة، ثم بدأت تتخذ لنفسها منهجاً خاصاً فيه حتى تشكلت لها مدرسة متميزة، وحتى لا تكاد تجد مسألة من مسائل النحو إلا وفيها مذهبان: بصري وكوفي"¹⁶. ولم تشغل الكوفة في بداية أمرها بالنحو؛ بل "كانت مشغولة عن ذلك كله على الأقل حتى منتصف القرن الثاني للهجرة بقراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار"¹⁷ وكانت في شغل عن النحو بالفقه ووضع مبادئه وفتاويه، "مما جعلها تحظى بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة وبثلاثة من القراء السبعة الذين شاعت قراءاتهم في العالم العربي وهم: عاصم وحمزة والكسائي، وعنيت بجانب ذلك عناية واسعة برواية الأشعار القديمة وصناعة دواوين الشعر"¹⁸.

إنّ نشاط الفقه بالكوفة جعلها محط أنظار مقرئي القرآن، ولعل وجود ثلاثة قراء ممن يعتد بقراءتهم جعلها مدرسة قرآنية لقراءة القرآن "والقراءات علم يعتمد على الرواية ويعتمد على التلقي والعرض... وهو لا يقوم على منطق أو اجتهاد أو تأويل ولكنه يتوقف أولاً وآخراً على الرواية والتلقي والعرض وهما أصح طرق النقل اللغوي"¹⁹ "وقد أجمع القدماء على أن نحو الكوفيين يشكل مذهباً مستقلاً؛ أو كما نقول بلغة العصر مدرسة مستقلة سواء منهم أصحاب كتب الطبقات والتراجم مثل ابن النديم في كتابه الفهرست، والزبيدي في كتابه طبقات النحويين واللغويين، أو أصحاب كتب المباحث النحوية"²⁰، ورغم ما كان من خلافات بين نحاتها ولا سيما بين الكسائي والفراء والذي تذرّع به بعض الدارسين ومنهم المستشرق "كوتلد فايل" في مقدمة كتاب الإنصاف الذي نشره والذي رأى فيه أن الكوفة لا تشكل مدرسة نحوية خاصة بها، إلا أن شوقي ضيف اعتبر هذا الزعم باطل ليس لديه ما يؤسس عليه وهو دليل ناقص، واعتبر الكوفة مدرسة نحوية قائمة بذاتها لها مؤسسوها ومنهجها الخاص في التّقييد للنحو واللغة، "واستطاعت أن تشقّ لنفسها مذهباً نحويّاً جديداً له طوابعه وله أسسه ومبادئه"²¹.

ومن أئمة مدرسة الكوفة الذين نظّروا لمنهجها وقعدوا لقواعد النّحو فيها نذكر: الكسائي وهو من أصل فارسي تتلمذ على يد كثير من العلماء الثّقات البصريين كعيسى بن عمرو وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وغيرهم كثير، "ولا ريب في أنّ الكسائي يعد إمام مدرسة الكوفة فهو الذي وضع رسومها ووطأً منهجها، وفيه يقول أبو الطيب اللّغوي: كان عالم أهل الكوفة وإمامهم إليه ينتهون بعلمهم وعليه يعولون في روايتهم"²² ومن علمائها أيضاً الفراء. "والفراء في الكوفة مثل سيبويه في البصرة... وكما كان سيبويه للخليل كان الفراء للكسائي تتلمذ له وطور ما أخذه عنه وأنضجه حتى استوى مذهباً واضح المعالم"²³. ومن علمائها المشهورين نذكر ثعلب أحمد بن يحيى (ت 291هـ) وهشام الضرير (ت 209هـ) والقاسم بن سلام (ت 223هـ) وابن السكيت (ت 244هـ) وغيرهم كثير.

وعلى يد هؤلاء وأمثالهم من علماء الكوفة نشط النّحو الكوفي، واتخذ منهجاً خاصاً نذكر من أهم أسسه مايلي:

- التّوسع في السّماع حتّى أنّهم كانوا يأخذون عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق، "مما جعل بعض البصريين يفخر على الكوفيين بقوله: نحن نأخذ اللّغة عن حرشة (أكلة) الضّباب وأكلة اليرابيع؛ أي (البدو الخالص). وأنتم تأخذونها عن أكلة الشّواريز وباعة الكواميخ؛ أي عرب المدن"²⁴
- التّوسع في القياس وفي المقيس عليه. فكانوا يقسون على القليل والكثير والتّادر والشّائع.
- التّوسع في قبول القراءات القرآنية: "وذلك ليس نتيجة تقديسهم للقراءات وحسن تقبلهم لها وإنّما بسبب ما عُرّفوا به من توسع في أصول اللّغة وقياس على القليل واعتداد بالمثال الواحد"²⁵.
- كانوا يعتدّون بالأشعار والأقوال الشّاذة ولا يشترطون أي نوع من الكثرة في تقعيد قواعدهم لذا قيل عنهم "لو سمع الكوفيون بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه"
- البعد عن قوانين المنطق والعقل .
- البعد عن التّأويل والتّقدير .

ومع هذا كله كانت هناك روابط بين الكوفة والبصرة "فالفصلة بين المدرسة الكوفية والمدرسة البصرية في النّحو ظلت قائمة على مدار الزّمن، وأن من الطبيعي أن نجد دائماً عند نحاة الكوفة تأثيرات مختلفة بالمذهب البصري، ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يتبينوا شخصياتهم إزاءه، وأن ينفذوا إلى مذهب مستقل بهم له طوابعه وخصائصه التي تفرده عن المذهب البصري أفراداً متميزاً واضحاً"²⁶

2-3- بغداد: وهي عاصمة العراق شيدها الخليفة المنصور سنة 145هـ وكانت عاصمة للعباسيين ومركز الحضارة الإسلامية طيلة قرون، قصدها نحاة العرب ممن تتلمذوا للمبرد وثعلب، "فنشأ جيل من النّحاة يحمل آراء مدرستيهما... وكان من هذا الجيل من يغلب عليه الميل إلى الآراء الكوفية ومن يغلب عليه الميل إلى الآراء البصرية فاضطرب كتاب التراجم والطبقات إزاءه، فمنهم من حاول تصنيف أفرادها في المدرستين الكوفية والبصرية على نحو ما صنع الزبيدي في طبقاته، ومنهم من أفردهم بمدرسة مستقلة كما صنع ابن النديم في الفهرست"²⁷، "وما كاد القرن الرابع يبدأ حتى أخذت مدرسة بغداد تتميز بمنهجها الخاص ولم يكن هذا المنهج جديداً من حيث الأسس أو طرائق الاستنتاج ولكنه منهج ينبي على الانتقاء من المدرستين البصرية والكوفية"²⁸.

وقد سلكت بغداد منهج التّقريب بين البصرة والكوفة، وإن لم يُخف بعض أئمتها ميلهم إلى منهج على حساب آخر، إلا أنّ هذا لم يمنع وجود مدرسة فعلية تسير وفق نهج علمي معين جاز لنا أن نطلق عليه اسم المدرسة البغدادية، إذ كان تصنيف المدارس قائماً على اعتبار الحيز الجغرافي والرقعة، وإن أنكر بعض الباحثين وجود المدرسة البغدادية على اعتبار نزوح بعض علمائها إلى البصرة أو الكوفة، إلا أنّ هذا لا ينفي اتّباع علمائها المنهج البغدادى القائم على الاختيار والانتخاب من آراء المدرستين الكوفية والبصرية.

ومن علمائها الذين نهجوا وأصلّوا للنّحو البغدادى الذي لا يخلو من تأثير المذهبين السّابقين نذكر: ابن كيسان (ت 299هـ) "وهو يعد أول أئمة المدرسة البغدادية... وكان قد أخذ عن المبرد وثعلب وأتقن مذهبيّ البصريين والكوفيين في النّحو... وتدرّج في كتب النّحو آراء كثيرة منها ما وافق فيه البصريين ومنها ما وافق فيه الكوفيين ومنها ما وصل إليه باجتهاده وبعد غوره"²⁹ ومنهم أيضاً الزجاجي (ت 337هـ) ومن كتبه المشهورة الإيضاح في علل النّحو، وأبو علي الفارسي (ت 337هـ). وابن جني صاحب الخصائص وسرّ صناعة الإعراب الذي قدم للعربية بهذين الكتابين جهداً متميزاً وغيرهم كثير ممن شكّلوا المدرسة البغدادية التي من أساسياتها:

- اعتمادهم طريقة الانتقاء .
- الاجتهاد في تقصي النّصوص وتحقيقها .
- استعمال الوسائل العلمية لإثبات الصحيح والفصيح وتميزه عن الرديء الخاطئ .
- إثبات المسائل بالدليل .
- العودة إلى الأصول خصوصاً في اختيار المادة اللّغوية .

2-4- الأندلس: حين دخل الإسلام الأندلس أقبل أهلها على تعلّم العلوم العربيّة وازدهر هذا مع قيام الدولة الأموية بالأندلس (138هـ-422هـ)، ورحل الأندلسيون إلى المشرق رغبة في العلم، وارتحل بعض المشاركة واستقر بالأندلس، ونشأ بهذا طبقة كبيرة من العلماء النّحويين وأول ما عنيوا بالقراءات، "وتوالى علماء الأندلس

في الأخذ عن مذاهب البصرة والكوفة وبغداد لكنهم لم يخضعوا خضوعاً كاملاً للنحو المشرقي، بل أضافوا إليه ما توصلوا هم إليه³⁰، "ويبدو أنّ الأندلس تأخرت في عنايتها بالنحو البصري وإنّما صبّت عنايتها أولاً بالنحو الكوفي مقتدية بنحوها الأول جودي بن عثمان"³¹ لكن لم تلبث أن التفتت للنحو البصري واحتل عندهم كتاب سيبويه الريادة في مجالسهم من حيث الدرس والشرح والتعليق والتعليل، "وأخذت دراسة النحو تزدهر في الأندلس منذ عصر ملوك الطوائف، فإذا نحاتها يخالطون جميع النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين، وإذا هم ينتهجون نهج الأخيرين من الاختيار من أراء نحاة الكوفة والبصرة، ويضيفون إلى ذلك اختيارات من أراء البغداديين وخاصة أبا علي الفارسي وابن جني"³².

وإذا تتبعنا المدرسة الأندلسية فإننا نجد نوعين من النحو قد ساد فيها: نحو تقليدي وآخر تجديدي؛ فالتقليدي منه ما التزم فيه النحاة بمناهج المدرسة البصرية والكوفية والبغدادية فشرحوا وعلّقوا ودرّسوا والتزموا بما جاء في هذه المدارس فغاب عنهم الاجتهاد والانفراد بالرأي والاستقلالية في النهج والمذهب، ومن بين هؤلاء أوائل النحاة كجودي بن عثمان (ت 198هـ) وهو "أول من أدخل كتب الكوفيين وأول من صنّف في النحو"³³ والأفشنقي محمد بن موسى (ت 307هـ) والذي ولع بكتاب سيبويه وأقرأه لطلابه بقرطبة "وكان دائماً يضع كتاب سيبويه بين يديه ولا يني عن مطالعته في حال فراغه وشغله وصحته وسقمه"³⁴. ومحمد بن يحيى الرّياحي (ت 358هـ). والزبيدي محمد بن الحسين (ت 379هـ) صاحب كتاب طبقات النحويين واللّغويين. وغير هؤلاء كثير ممن تأثروا بالنحو المشرقي ونسجوا على منواله في التدريس والإخراج والتأليف.

وأما النحو التجديدي فهو الذي سلك فيه أصحابه منهجاً مخالفاً للمدارس الشرقية ودعا فيه أصحابه إلى نبذ التقليد والمحاكاة الجافة للدرس النحوي القديم وتعويضهما بالاجتهاد ولعل ابن حزم (ت 456هـ) يعدّ من أوائل دعاة التجديد النحوي، فقد كان ظاهري المذهب؛ أي متأثراً بالمذهب الظاهري "الذي يأخذ بظاهر النصوص وينكر التقليد ويبیح الاجتهاد لمن يقدر على استنباط الأحكام، كما يعود إلى النصوص أولاً وأخيراً ولا يبحث في العلة"³⁵، وكان من نتائج هذا المذهب أن انفرد بمنهج خاص في النحو يدعو إلى إنكار التقليد ويشرّع الاجتهاد في النحو، ونفس الاتجاه نلمسه عند ابن مضاء القرطبي (ت 592هـ) الذي شغل الدارسين بكتابه الردّ على النحاة فكانت آراؤه في هذا الكتاب من أكثر الآراء تأثيراً في الدرس النحوي وتوجيهه الوجهة الأصولية الفقهية فاصطبغ بذلك النحو في الأندلس مع هذين العالمين بصبغة دينية اجتهادية، فقد "حاولت الأندلس أن لا تدور في فلك البصرة والكوفة حيث نهجت نهجاً مخالفاً، وظهرت فيها دراسات حرة تدعو إلى هدم النحو القديم الموروث عن سيبويه، وبناء نحو جديد يقوم على أوضاع جديدة، فدعو إلى عدم التقليد، بل تكون أحكامهم مما يؤديه اجتهادهم وتخليص النحو من الفروع الكثيرة وحذف ما يستغنى عنه والتنبية على ما أجمع على الخطأ فيه"³⁶.

ويمكن أن نحصر أراء المدرسة الأندلسية وخصوصاً الاتجاه التجديدي فيها فيما يلي:

- رفض القياس وما يتصل به من علل .
- الاكتفاء بالظاهر من القرآن والحديث .

- رفض التّقديرات والتّأويلات .
- الاستكثار من رواية الحديث والاستشهاد به .
- الاتّجاه نحو التّبسيط والتّيسير .
- فتح باب الانتقاد والاجتهاد .
- الاتّجاه نحو المتون النّحوية المنظومة .

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن المدرسة الأندلسية تركت فعلا بصمتها في التّأثيل للدرس النّحوي فكراً واجتهاداً ومنهجاً، ولا أدلّ على ذلك من أن النّحوي ابن مالك (ت 672هـ) صاحب الألفية أندلسي الأصل، والذي سادت ألفيته تدريس النّحو في المشرق نظير قراءته الثّاقبة لجهود الأوائل من النّحاة، والتي استغلها في "تحرير مباحث النّحو وأبوابه ومصطلحاته وتذليل مشاكله وصعابه"³⁷.

ويمكننا الجزم أن المدرسة الأندلسية فتحت باباً كان مغلقاً، واتجهت نحو النّقد الممنهج القائم على إعادة قراءة النّحو من منظور آخر هو المنظور الظاهري، والابتعاد عن الإغراق في القياسات والتعليقات والتأويلات والتّخرجات النّحوية التي أثقلت النّحو العربيّ وجعلته مستصعباً على الدّارسين والمدرسين أنفسهم .

2-5- مصر: لقد كانت مصر ذات مكانة مرموقة في عهد الدولة الإسلامية، وخصوصاً الفترة العباسية فكانت تغصّ بالعلماء والمؤدّبين وكان طبيعياً أن تنشط "دراسات النّحو في مصر مبكرة مع العناية بضبط القرآن الكريم وقراءاته، مما دفع إلى نشوء طبقة من المؤدّبين على غرار ما حدث بالأندلس كانوا يعلمون الشّباب في الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربيّة حتى يحسنوا تلاوة الذكر الحكيم"³⁸، ونذكر من بين هؤلاء: عبد الرحمن بن هرمز (ت 117هـ) تلميذ أبي الأسود الدؤلي ويعتبر ممن أذاع نطق الإعراب ونقط الإعجام في المصحف وإنّه كان من جلة القراء، وكان قد أخذ القراءة عن عبد الله بن العباس وأبي هريرة وعنه أخذها نافع مقرئ أهل المدينة"³⁹، "غير أنّنا لانجد تأليفاً في النّحو بمعناه الحقيقي إلّا في القرن الثّالث"⁴⁰، وأول نحوي حمل بمصر راية النّحو بمعناه الدقيق ولاد بن محمد التميمي البصري الأصل الناشئ بالفسطاط، وقد رحل إلى العراق فلقى الخليل بن أحمد وأخذ عنه ولأزمه وسمع منه الكثير، وعاد إلى مصر ومعه كتبه التي استفادها في العربيّة من إملاءات الخليل، وأخذ يحاضر فيها الطلاب... وكان يعاصره أبو الحسن الأعز الذي تتلمذ على الكسائي، وبذلك اتّصلت الدراسات النّحوية بمصر في زمن مبكر بإمامي المدرستين الكوفية والبصرية"⁴¹.

كما نجد أيضاً من النّحويين المتميزين أحمد بن جعفر الدينوري (ت 289هـ) الذي اتّجه صوب البصرة، وأخذ النّحو عن المازني، وبن ولاد بن محمد التميمي (ت 298هـ) وكراع النمل (ت 310هـ) وقد رحل إلى بغداد وأخذ عن النّحويين البصريين والكوفيين وكان يمزج في مصنفاته بين أرائيهما وكان إلى أراء البصريين أميل"⁴²، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد (ت 332هـ) وغيرهم كثير من العلماء الناهيين في مجال النّحو، أمّا في عصر المماليك فازدهر الدّرس النّحوي في مصر ازدهاراً عظيماً بلغ أوجّه من التّأليف وبلغت شهرة مؤلفيه الآفاق نذكر منهم: بهاء الدين بن النحاس (ت 698هـ). والعالم الكبير ابن الحاجب (ت 646هـ) صاحب الكافية والشافية في النّحو والصّرف، ثم انبرى للدّرس النّحوي في مصر عالم جليل أصل للنّحو العربيّ تأصيلاً وأعاد قراءته وهو ابن هشام الأنصاري (ت 761هـ). وقد قال عنه ابن خلدون: "ومازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنّه

ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه⁴³، وقد تداول على شرح كتبه العديد من النحاة المصريين وغير المصريين نذكر منهم: الأشموني (ت 929هـ) صاحب شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . وإذا تأملنا جهود علماء المدرسة المصرية فإنها نحت اتجاهين: اتجاه التقليد واتجاه آخر عمد إلى قراءة جديدة للنحو العربي واتجه اتجاه التجديد، والاتجاه التقليدي هو الغالب لأنه ضمّ معظم النحاة الأوائل الذين تبنا أفكار المدرسة البصرية والكوفية والبغدادية وأعادوا اجترار النحو القديم بتبني نهج شيوخه وأئمتهم، أما الاتجاه التجديدي فكان مع الجيل المتأخر من العلماء الذين جمعوا بين آراء المدارس النحوية السابقة الذكر، وأبدوا جانب التجديد في الكثير من المسائل النحوية فجددوا وابتكروا آراءً نحوية جديدة شرعت للدارسين إطلاق اسم المدرسة على علماء مصر النحويين، والذي أهلهم لذلك هو الاتجاه أولاً و الرقعة الجغرافية ثانياً، وأحسن من يمثل الاتجاه التجديدي في المدرسة المصرية هو ابن هشام الأنصاري من خلال مؤلفاته: شذور الذهب في معرفة كلام العرب، وقطر الندى وبل الصدى، والإعراب عن قواعد الإعراب، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وكأنما بأعماله هذه قد نفخ في جسد النحو فأحيا بكتبه روحه وصبغ عليه صبغة الاجتهاد؛ لأنه لم يلتزم مذهباً نحوياً معيناً ولم يأخذ بشكل مطلق بأقوال المدرسة البصرية أو الكوفية أو البغدادية، فقبل من آراء هذه المدارس ما رآه صواباً ورفض بعض الآراء والأفكار والإخراجات، وأتى بآراء جديدة في المسائل التي عالجها "بما أتاحه لها من ملكاته العقلية النادرة، ومن إحاطته بآراء النحاة السالفين له على اختلاف مدارسهم وأعصارهم وبلدانهم ومن قدرته البارة في مناقشة تلك الآراء، مع ما امتاز به من طرافة التحليل والاستنباط وجمال العرض والأداء"⁴⁴.

2-6- المغرب: كنّا قد أشرنا سابقاً أنّ هناك اختلافاً في تحديد عدد المدارس النحوية العربية وكثير من الكتب تسقط المغرب من حساباتها النحوية، وهناك من وضع شروطاً ينبغي توفرها حتى يصحّ إطلاق تسمية مدرسة "فليست المدرسة إلا أستاذاً مؤثراً، وتلاميذ متأثرين وقد اجتمعوا على تحقيق غرض موحد ونهجوا للوصول إليه منهجاً جديداً"⁴⁵، غير أن هناك من الدارسين من ثبتت المدرسة المغربية ومنهم المستشرق "هويل" الذي أضاف مدرستين آخرين في مصر والمغرب⁴⁶.

وإذا تأملنا المغرب سنجد أنّه لم يخرج عن قاعدة الأندلسيين في احتضان الدرس النحوي، وقد عمل على هذا علماء كبار نشروا النحو واشتغلوا على إيصاله لتلاميذهم ونذكر من بين هؤلاء ابن معطي الزواوي (ت 563هـ) وابن أجروم، وأبو موسى الجزولي والمكودي وغيرهم ممن عملوا على النحو في المغرب، وإن كان نحو المغرب لا يختلف عن نحو الأندلسيين بحكم التمازج الذي كان آنذاك في عهد المرابطين والموحدين، وهذا ما دفع بعض الدارسين إلى دمجهم في مدرسة واحدة هي مدرسة الأندلس والمغرب، ولكن في مقابل الدعاوى الداعية إلى إسقاط اسم المدرسة المغربية من المدارس النحوية هناك من اعترف بصنيع وجميل بعض نحاتها، ممن طبعوا النحو العربي بشروحهم ومتونهم وحواشيمهم وتعليقاتهم على المسائل النحوية المختلفة، وممن دافع عن المحدثين عن مدرسة المغرب وهم قلة قليلة جداً نجد صالح بلعيد حيث يقول: "المذهب المغربي لا يختلف كثيراً عن الأندلس والأندلس أطلق عليها اسم المدرسة فطبيعي أن يطلق هذا المصطلح على الجهود التي قدمت في المغرب، ورأينا أن المدرسة لا تطلق إلا على المذهب الذي حاول أن ينظر

أو يخرج عن أنماط البصرة والكوفة، وهذا ما فعلته الأندلس والمغرب وباعتبار أن المغرب تتبع الأندلس في كثير من أرائها إذن تستحق هذا اللقب العلمي وهي جديرة به "المدرسة المغربية"⁴⁷

وعليه فإنّ الدّارسين على اختلاف مضاربهم متّفقون على الأقل على وجود مدرستين في النّحو العربيّ هما: البصرة والكوفة، ولم يشذ عن هذا إلا القلة النّادرة منهم كالمستشرق "ويل" الذي اعترف بالمدرسة البصرية فقط⁴⁸ ومنهم من اعتبر المدرسة البغدادية والمصرية والأندلسية امتداد لهاتين المدرستين، نحت نحوهما ونهجت سبيلهما في المسائل النّحوية "وأما ما قيل بعد ذلك عن مدرسة الأندلس أو مدرسة مصر فضرر من الاختلاف لا ينهض عليه دليل؛ لأنّ النّحو العربيّ في بيئاته المختلفة منهج واحد، له أصول ثابتة وأدوات معروفة وما الخلاف الحاصل بين النّحاة إلّا خلاف في طبيعة استعمال هذه الأدوات والنتائج التي يتوصل إليها في أجزاء الدّرس لا في حقائقه الكلية"⁴⁹.

خاتمة: إن ما يلفت انتباهنا في عرضنا الموجز للمدارس النّحوية على اختلافها هو أنّ النّحو العربيّ بدأ "بسبب قومي تمثّل في حماية لغة الأُمّة والحفاظ على وحدة أبنائها بوحدة لغتهم وبسبب سياسي تمثّل في الحرص على فهم التّشريع الذي جاءت به الرسالة الإلهية بلسان عربيّ مبين وبسبب اجتماعي يرمي إلى دفع ما قد يشعر به الداخل إلى الإسلام من غير العرب من النّقص والتّقصير إذا هو لم يعرف لغة الدّين الذي اعتنقه على وجهها الصحيح"⁵⁰ فنشأ بذلك النّحو نشأة وقائية لتحيد الغلط ودفع المضرة التي أصيب بها اللّسان العربيّ، والمحافظة على نقائه وصفائه، وبدأت رحلة البحث عن اللّغة الأصليّة والتّأصيل لقواعدها وثوابتها وأصبحت باكورة النّحو العربيّ تتضح على يد الخليل وتلميذه سيبويه ومن نحا نحوهما من العلماء، فإذا بالمخطوطات تتكاثر في هذا الباب أو ذاك من أبواب النّحو، ناهيك عن المجالس والحلقات العلميّة، وانكبّ الخاصّة والعامة في تعلّم هذا العلم الجليل ورأوه ميزان العربيّة الذي به تستقيم ألسنتهم فحظي علماء العربيّة عند الملوك والسلّاطين، واتّخذوا من بعضهم مؤدّبين لأبنائهم، وما يلفت أيضا هو أن كثرة الخلافات والتّعقيدات النّحوية جعلت منه درسًا غامضًا في كثير من حالاته، حتّى اشتكى من صعوبته الكثير، فنهج في مرحلة أخرى نحو التفسير والشّروح والتبسيط، ولعلّ أول محاولة لإعادة قراءة النّحو العربيّ قراءة ثانية كانت عند الأندلسيين متمثلة في جهود ابن مضاء القرطبي من خلال كتابه الرّدّ على النّحاة والذي أخضع دراسته إلى معيار ديني ظاهري، وأتى بأشياء جديدة لم تألفها العرب في دراستها للغة كما أنكر الكثير من المسائل النّحوية ولم يبق مع الزمن إلّا مدرستين ثابتتين هما المدرسة الكوفية والمدرسة البصرية واختلاف شيوخهما أدى إلى اختلاف أوجه النّحو، فنظمت المتون النّحوية لتسهيل تعليمه على الناشئة والمتعلمين وكل هذه الجهود لم تسهل دربه ولم تلين منهجه واستوعره طلابه فنحت المدارس الأخرى صوب التيسير والتجديد فسادت المتون لغايات تعليمية مازال خيرها يعمّ طالب هذا العلم إلى اليوم.

الهوامش:

¹ - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب للنشر، القاهرة، ط6، 1988، ص: 128.

² - المرجع نفسه، ص: 129.

³ - المرجع السابق، ص: 128.

⁴ - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 134.

- ⁵ - عبده الراجعي، دروس في المذاهب النحوية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص: 9.
- ⁶ - رشيد عبد الرحمن العبيدي وعبد الحسين محمد الفتلي وطارق عبدون الجنابي، تاريخ العربية، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، د.ط، د.ت، ص: 10، 11.
- ⁷ - المرجع نفسه، ص: 11.
- ⁸ - ابن سلام الجمعي، طبقات الشعراء، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1969 ص: 12.
- ⁹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 7، 1968، ص: 20.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، ص: 27.
- ¹¹ - المرجع نفسه، ص: 28.
- ¹² - ينظر: السيراقي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيتي ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ط 1، 1955. وفيه ترجمة مفصلة للأعلام.
- ¹³ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 18.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص: 19.
- ¹⁵ - عبد الراجعي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 89.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص: 89.
- ¹⁷ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 20.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص: 153.
- ¹⁹ - عبده الراجعي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 89، 90.
- ²⁰ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 155.
- ²¹ - المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص: 158.
- ²² - المرجع نفسه، ص: 175.
- ²³ - عبده الراجعي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 92.
- ²⁴ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 160.
- ²⁵ - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 137.
- ²⁶ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 159.
- ²⁷ - المرجع نفسه، ص: 245.
- ²⁸ - عبده الراجعي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 159.
- ²⁹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 248، 249.
- ³⁰ - ينظر: عبده الراجعي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 216.
- ³¹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 289.
- ³² - المرجع نفسه، ص: 292.
- ³³ - المرجع نفسه، ص: 289.
- ³⁴ - المرجع نفسه، ص: 289.
- ³⁵ - صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت، ص: 164.
- ³⁶ - عبد الكريم بكري، ابن مضاء موقفه من أصول النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1982، ص: 125.
- ³⁷ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 317.
- ³⁸ - المرجع نفسه، ص: 327.
- ³⁹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 327.
- ⁴⁰ - عبده الراجعي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 249.
- ⁴¹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 327، 328.
- ⁴² - المرجع نفسه، ص: 329.
- ⁴³ - ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، 1991، ص: 8.

- ⁴⁴ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 7، 8.
- ⁴⁵ - مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، دارالرائد العربي، بيروت، ط6، 1986، ص: 106.
- ⁴⁶ - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 135.
- ⁴⁷ - صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ص: 179.
- ⁴⁸ - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 134.
- ⁴⁹ - علي مزهر الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، الدار العربية للموسوعات، بيروت لبنان ط1، 2003، ص: 368.
- ⁵⁰ - ينظر: علي مزهر الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، ص: 97.